دور الوزراء في مساندة ودعم الخلافة العباسية في مواجهة الاتجاهات الفكرية المخالفة في العصر العباسي الاخير 512-656/1018-1258م

م.د. أيمن هادي فتحي علي
وزارة التربية/ المديرية العامة لتربية نينوى / متوسطة المصائد للبنين

الملخص

يتناول هذا البحث دور الوزراء في دعم الخلافة العباسية لمواجهة الاتجاهات الفكرية المخالفة خلال العصر العباسي الأخير (512-656هـ/1018-1258م). يوضح النص كيف أدى التسلط السلجوقي إلى تقويض سلطة الخلافة من خلال دعم المدارس النظامية والاتجاهين الشافعي والأشعري لفرض هيمنتهم. في المقابل، اعتمدت الخلافة على الاتجاه الحنبلي الذي تميز بقاعدته الشعبية الواسعة واستقلاليته، فضلاً عن دعمه المطلق لشرعية الخلافة. ويبرز البحث الدور المحوري للوزراء، مثل الوزير ابن هبيرة، في التصدي للنفوذ الأجنبي وإعادة بسط سيطرة الخلافة فكرياً وسياسياً. كما يوضح كيف امتد هذا النفوذ لاحقاً ليصل إلى التدخل المباشر في المناهج التعليمية وتقييد الحريات الفكرية للمدرسين، كما حدث في المدرسة المستنصرية.

الكلمات المفتاحية: الخلافة العباسية، العصر السلجوقي، الاتجاه الحنبلي، المدارس النظامية، الوزراء، ابن هبيرة.

The Role of Ministers in Supporting and Backing the Abbasid Caliphate against Opposing Intellectual Trends in the Late Abbasid Era (512–656 AH / 1118–1258 AD)

Asst. Prof. Ayman Hadi Fathi Ali
Ministry of Education / Nineveh General Directorate of Education / Al-Masayid Intermediate School for Boys
aymanhadi599@gmail.com

Abstract

This research examines the role of ministers in supporting the Abbasid Caliphate against opposing intellectual movements during the late Abbasid period (512-656 AH / 1018-1258 AD). The text highlights how Seljuk domination threatened the Caliphate's authority by supporting Nizamiyya schools and promoting Shafi'i and Ash'ari doctrines to assert control. In response, the Caliphate relied on the Hanbali movement, capitalizing on its broad popular base, independence, and strong support for caliphal legitimacy. The study emphasizes the pivotal role of ministers, such as Ibn Hubayra, in countering foreign influence and restoring the Caliphate's intellectual and political power. Furthermore, it illustrates how this authority eventually expanded into direct interference with educational curricula and the restriction of scholars' intellectual freedoms, as seen in the Mustansiriya madrasa.

Keywords:Abbasid Caliphate, Seljuk Era, Hanbali Movement, Nizamiyya Schools, Ministers, Ibn Hubayra.

المبحث الأول

الخلافة العباسية والتسلط السلجوقي: الصراع على الشرعية

كان من مظاهر التسلط الأجنبي الذي هيمن على الخلافة منذ العقد الثالث من القرن الرابع الهجري، أن وفر الحرية للاتجاهات الفكرية المخالفة للخلافة في الرأي، وقدم لها الدعم والحماية، بما هدد بتقويض مرتكزات الخلافة (قادر ونهلة أحمد، 2009، 177؛ فوزي، 1988، 316)، التي لم يبق لها سوى النفوذ الديني بعد أن جردت صلاحياتها وسعت به الى تقوية مركزها وتثبيت أحقيتها بوجه المشككين بشرعيتها (جب، 1979، 13، 28)، إلا أن موجبات متعددة استطاعت إفساح المجال للاتجاه الحنبلي أن يتصدر المواجهة ليس لأنه دعم أحقية الخلافة وشرعيتها وأوجب طاعتها ونظريتها وحرم الخروج عليها فحسب (أبو يعلى، 2000، 54-57) بل لأنه من دون الاتجاهات الأخرى كان بمنأى عن احتواء القوى السياسية التي زجت في خضم تنافسها مع الاتجاهات الفكرية الأخرى، مما جعل الاتجاه الحنبلي أكثر الاتجاهات المبراه من المقاصد سوى الإيمان بسلامة الموقف (ابن رجب، 1952، 273/1)، فضلاً عن اتساع قاعدته الشعبية التي كانت الخلافة بأمس الحاجة لقواها الذاتية في هذه المدة (ابن كثير، 1986، 66/12).

وعلى الرغم من أن السلاجقة حرصوا على منع الخليفة من التدخل في غير أمور الدين ممثلاً للشرع لكل اتجاهاته، فضلاً عن السلطتين الدينية والدنيوية التي افترضوا أنهم مفوضون بمهامها وواجباتها (ابن واصل، 1953، 61/1-62)، فضلاً عن ذلك فإن أهدافهم الدنيوية من الصعوبة تحقيقها ما لم تكتسب لبوساً دينياً، مما أوجب التفكير بذلك وإن تجاوزوا على صلاحيات الخليفة وهذا ما استهدفه نظام الملك (البنداري، 1978، 17، 79-81)، باستعادة نظام تعليمي مدرسي موجه التزمتها المدارس النظامية (السمعاني، 1962، 28/6؛ الذهبي، 1985، 94/19-96؛ ابن كثير، 1993، 749).

وكان أحد أهم أهدافه احتواء عدد من الاتجاهات الفكرية المهيئة لمنح الشرعية المسوغة للسياسة السلجوقية في الوسط البغدادي وتوجيه الرعية وجهة تتفق ومصالح حكامها بإعدادها لقبول سلطتها وإطاعة قوانينها (ابن الجوزي، 1990، 238/8، 246-247؛ حسين، 1976، 105؛ مصطفى جواد وآخرون، 1969، 45-46)، فضلاً عن تهيئة كوادر تدين بالولاء والطاعة لها، ولما كان نظام الملك شافعياً كان يرى أن يدرس الفقه والأصول من أفكار الشافعية وفقههم، وكان من الشروط النظامية أن يكون المدرس من الشافعية أصلاً وفرعاً (مصطفى جواد وآخرون، 1969، 46).

لذا اختصت النظامية الاتجاه الشافعي بعامة، والأشعري بخاصة (أصلاً وفرعاً) بالوعظ والتدريس (ابن الجوزي، 1990، 62/9-63)، فأضطر عدد من العلماء الى تغيير اتجاهاتهم رغبة في نيل مكانة أو امتياز لا تمكنهم مذاهبهم من نيلها (ابن الجوزي، 1990، 102/9؛ ابن رجب، 1952، 111/1)، فضلاً على أنه أشرت التزاماً ودعماً رسمياً، إذ حرص الفقهاء الشافعية، بخاصة أولئك القادمون من خارج بغداد على مهاجمة الاتجاه الحنبلي على الرغم من علمهم بقوته وقاعدته (كلارك، د.ت، 25، 53، 58)، معبرين عن رغباتهم في تحجيم هذا الاتجاه وتهميش نشاطه في الوسط البغدادي، ذلك مثاراً للاصطدام الذي توالت فصوله وآثاره في الحوادث التي أشرت معيار القوة والتأثير في أوساطه العامة، فضلاً عن أنها أفرزت بوح الاتجاهات والمقاصد (ابن الجوزي، 1990، 305/8-306؛ ابن الأثير، 1966، 104/10-105؛ ابن كثير، 1986، 115/12؛ ابن رجب، 1952، 12/1)، إذا اقترنت نظرة الحنابلة إلى النظامية بالتسلط السلجوقي، وعدوا فقهاءها أعواناً لهم، بما جعلها في نظرهم مفسدة الدين، يجب نفض آثارها (ابن كثير، 1986، 115/12؛ ابن رجب، 1952، 12/1).

أما السلاجقة فلم يخفوا تعاطفهم ودعمهم لمؤسساتهم وكوادرها بكثير من الوسائل الضاغطة على مؤسسة الخلافة للحد من فعل الحنابلة (السبكي، 1992، 235/4؛ ابن كثير، 1986، 115/12)، الذين مكنتهم قوتهم ونفوذهم الفعلي من حصر تأثير النظامية، والحد من نشاطها إلى حد جعل كوادرها تستغيث بالسلاجقة وغيرهم، ولم تجد من يغيثها (ابن الجوزي، 1990، 306/8؛ السبكي، 1992، 235/4)، حتى إن نظام الملك اضطر للاعتراف بقوة الحنابلة واتساع قوتهم، إذ جاء في رده على رسالة الشكوى التي أرسلها إليه متولى النظامية أبي إسحاق الشيرازي (ت 476هـ/ 1083م) مطالباً إياه بتدارك الموقف بقوله:

((وليس في المكنه الأبيان عن بغداد ونواحيها ونقلهم على ما جرت عليه عاداتهم فيها فإن الغالب هناك هو مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل)) (ابن الجوزي، 1990، 142/10؛ السبكي، 1992، 235/4).

أما الخلافة التي كانت حريصة على وحدة الاتجاهات الساندة لها في مواجهة الاختلافات المخالفة لها في الرأي سياسياً وفكرياً، فقد وجدت في التزام السلاجقة للشافعية ودعمهم بترسيخ توجهاتهم، وفق نظام تعليمي في بغداد وخارجها تجاوزاً على صلاحيتها (كلارك، د.ت، 25)، فضلاً عن ذلك فإن هيمنتهم على شؤونها واتجاهها المعرفي جعلها خارج إرادة الخلافة (ابن الجوزي، 1990، 146/10-147)، بما عدها من آثار التسلط التي هدفت الخلافة إلى تجاوزه بما لديها من إمكانيات.

المبحث الثاني

الاتجاه الحنبلي كركيزة استراتيجية للخلافة

وفي سنة 521هـ/1127م حدثت فتنة بين الحنابلة والأشعرية، كان سببها أن أبا الفتوح الإسفرائيني محمد بن فضل بن محمد (ت 538هـ/1143م) (ابن الجوزي، 1990، 110/10-111؛ السبكي، 1992، 170/6-173)، ((وكان لا يعرف الحديث، وإنما هو في ذلك على عادة القصاص، سئل بما قاله النبي (ص)، ((ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات)) فقال هذا ليس بصحيح، وقال يوماً على المنبر قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت؟ قال أعمى بين عميان ضالاً بين ضلال، فنقل ذلك إلى الوزير ابن صدقة فاستحضره فأقر وأخذ يتأول تأويلات باردة فاسدة، فقال الوزير للفقهاء ما تقولون؟ فقال... لو قال هذا الشافعي ما قبلنا منه ويجب على هذا أن يجدد إسلامه وتوبته، فمنع من الجلوس بعد أن استقر أن يجلس ويشد الزنار (الفيروز آبادي، 2005، 203/1-401؛ القلقشندي، 1987، 468/10)، ويتوب ثم يرحل من بغداد فنصره قوم من الأكابر يميلون إلى اعتقاده فأعادوه إلى الجلوس وكان يتكلم بما يسقط حرمة المصحف في قلوب العوام فأفتتن به خلق كثير وزادت الفتن في بغداد وتعرض أصحاب أبي الفتوح ... فرجموا ورجم معهم أبو الفتوح ... ومع هذا يقول ليس هذا الذي تتلوه كلام الله، إنما هو عبارة ومجاز الكلام الحقيقي قائم ما بالنفس، فينفر أهل السنة كلما سمعوا هذا... وكان الحنابلة يصيحون على عاداتهم هذا يوم سني حنبلي لا قشيري ولا أشعري أو يصرخون بسب أبي الفتوح فمنعه المسترشد من الجلوس وأمر أن لا يقيم ببغداد وكان ابن صدقة يميل إلى أهل السنة فنصرهم)) (ابن الجوزي، 1990، 6/10؛ الذهبي، 1985، 140/20-142).

المبحث الثالث

دور الوزراء في حماية "الهوية" الفكرية (دراسة حالة: ابن هبيرة)

ومثلت تولية المقتفي لأمر الله، لابن هبيرة الوزارة قمة ما بلغه هذا الوفاق الذي أظهر بشكل ما في مضامينه، فهو من جهة يمثل رغبة حنبلية للاندفاع في تولي الوظائف ضمن مؤسسة الخلافة انسجاماً مع التحول المبدئي في منطلقاتهم لبلوغ مدى التأثير المعزز بقوة السلاجقة، ومن جهة أخرى هدفت الخلافة تعزيز قوتها وتوسيع قاعدتها، بالإعلان عن التزامها اتجاهاً فكرياً فاعلاً يدعمها في تصفية ما كرس من التسلط السلجوقي من آثاره (قادر، 2009، 179) ابن هبيرة كل إمكانية في مساندة الخلافة ودعم سياسة إحياء نفوذ الخلافة ومنهجها الفكري (البنداري، 1978، 204-205) في اتجاهين مترافقين، دعم أحدهما الآخر على المستوى الداخلي، ففي الوقت الذي كان يعمل على تهيئة وقيادة الجيش التي حققت هدف الخلافة في التحرر من التسلط السلجوقي كان يهدف في الداخل لإعادة ترتيبه وفق منهجه عالماً حنبلياً (ابن الجوزي، 1990، 214/10؛ ابن رجب، 1952، 252/1).

أما على المستوى الخارجي، فقد كان هاجس الوزير يتمحور حول وضع حد للوجود الفاطمي الذي لم يزل نفوذه الفكري والسياسي يقلق الخلافة العباسية إذ كاتب السلطان نور الدين محمود زنكي

(569هـ/1173م) يستحثه على انتزاع مصر من الفاطميين فسير أسد الدين شيركوه مرتين وفي المرة الثالثة خطب فيها للخليفة المستنجد بالله (ابن رجب، 1952، 258/1؛ ابن القاضي شهبة، 1971، 195) ولا يمكن لابن هبيرة مع الإقرار بمكانته وعلمه وكفاته أن يحقق أهدافه الفكرية على واقع تأخرت فيه مختلف الاتجاهات بمقاصد متعارضة على مدى قرنين من التسلط الأجنبي، من دون أن يهيأ أرضيته وينتقى وسائله، مستعينا بجهود واهتمامات كبار فقهاء عصره وعنايتهم الحنابلة المتواجدين في بغداد (ابن الجوزي، 1990، 194/10، 256، 284؛ ابن الجوزي، 2001، 8-22؛ ابن رجب، 1952، 291/1-292، 346-347، 403، 409)، في أوسع حمله قادها الوزير لاجتثاث آثار التسلط السلجوقي في كل المفاصل، بسبل لم تتخذ في نمط معين بل استثمرت الوسائل كلها لإعادة صياغة التركيبة الفكرية للمجتمع بدأ بالوعظ والتأليف والتعليم مدعوماً بتيار حنبلي (ابن الجوزي، 1990، 194/10، 214-215؛ ابن الجوزي، 2001، 18، 148؛ ابن كثير، 1986، 205/12-251؛ ابن رجب، 1952، 254/1-256) وبلغ هذا التناغم في الوسائل ذروته المؤثرة بانعكاسه على الواقع السياسي بما جعل الموقف الخلافي أكثر قوة في فرض صياغته وقناعاته، وهناك الكثير من الشواهد التي أشرت ذهاب الخلافة باتجاه مخالف للإدارة السلجوقية، ففي شهر محرم سنة 544هـ/1149م عين السلاجقة يوسف الدمشقي (ت 562هـ/1166م) مدرسا في النظامية متجاوزين رغبة الخليفة المقتفي لأمر الله وخياره فجاء رد فعل الخلافة بحرمانه من دخول دار الخلافة وتأدية صلاة الجمعة في جامع القصر وتعرض هو وأصحابه للتوبيخ والإهانة بما جعله لا يغادر داره، وحين عرض التدريس على بديله (أبي النجيب) اشترط موافقة الخليفة لكي يباشر عمله (ابن الجوزي، 1990، 142/10؛ ابن الأثير، 1966، 152/11؛ ابن كثير، 1986، 228/12)، وما يؤشر التصعيد في موقف الخلافة لاستعادة إرادتها على رعاياها، وعدم الرضوخ لازدواجية الولاء، وبخاصة إذا اقترن بسلطة أجنبية، ويبدو أن ابن العبادي أبا منصور المظفر بن أدرشير أستشعر هذا التحول في الجانب العربي فطالبه بما واجهه من ردة فعل الناس التي كادت تفقده حياته لولا حماية أرباب الدولة له (ابن الجوزي، 1990، 145/10؛ السبكي، 1992، 229/7-300).

وبقيت النظامية تؤكد خروجها على إرادة الخلافة وأنها فوق قانونها ففي سنة 547هـ/1154م فقد حضر نائب التركات الحشرية إلى النظامية لحصر تركة يعقوب الخطاط فمنعه فقهاؤها من تأدية عمله، ورفعوا شكوى إلى الديوان فأوعز بإلقاء القبض على بعضهم وإيداعهم السجن، فردوا على ذلك بإغلاق المدرسة، واستغاثوا وأساءوا التصرف، وعلى الرغم من أن الخليفة عفا عنهم وعن مدرسهم أبي النجيب، وأمرهم أن يلزموا بيوتهم، فقد اعتصموا بدار الملك بقصد إيجاد أزمة بين الخلافة والسلطة السلجوقية المحتمين بنفوذها، إلا أن الخلافة لم تشأ استفزاز السلطان مسعود، إذ إن مواجهته لم يحن أوانها بعد، حسب رأي الوزير ابن هبيرة (ابن الجوزي، 1990، 146/10-147؛ القزويني، 1990، 367؛ ابن كثير، 1986، 230/12؛ ابن رجب، 1952، 258/1؛ العليمي، د.ت، 291/2) فاحتملت قرار نائب السلطان في بغداد مسعود البلالي بإعادة أبي النجيب ومن معه إلى النظامية، مهمشاً قرار الخليفة ومؤكداً له أنه بمنأى من إرادته (ابن الجوزي، 1990، 147/10؛ ابن الأثير، 1966، 118/11؛ ابن خلكان، 1900، 204/3) ويقول ابن الجوزي (1990، 147/10) عن أبي النجيب ((فجلس ودرس ووعظ بالكلمات بالعجمية لا يعرفها إلا أعجمي)).

وبعد وفاة السلطان مسعود سنة 547هـ/ 1152م (الراوندي، 1995، 354؛ البنداري، 1978، 157)، فتحت أمام الوزير ابن هبيرة آفاق لانطلاقة غير مقيدة لمواجهة الشخصيات التي تجاوزت على الخلافة والقصاص منهم، ففي السنة نفسها قبض الوزير ابن هبيرة على أبي النجيب مدرس النظامية وحمله إلى الديوان وأهانه وحبسه (ابن الجوزي، 1990، 147/10)، وقبض أيضا على الشاعر الحيص بيص (أبي الفوارس سعد بن محمد بن سعد الصيفي كان فقيها شافعي المذهب ت 574هـ/1178م) (ابن الجوزي، 1990، 147/10؛ ابن كثير، 1986، 301/12-302) وفي سنة 551هـ/1156م قبض على الواعظ علي بن الحسين الغزنوي وأودعه السجن بتهم مختلفة (ابن الجوزي، 1990، 167/10-168؛ ابن كثير، 1986، 234/12)، وفي سنة 555هـ/ 1160م قبض الوزير ابن هبيرة على أبي الوفاء بن سعيد المعروف

بابن المرخم الذي كان قاضيا وليس الحاكم، فصادروا أمواله وأعيد منها إلى الناس، وأحرقت كتبه منها كتاب الشفاء لابن سينا، وإخوان الصفا وحبس فمات في الحبس (ابن الجوزي، 1990، 194/10؛ ابن الأثير، 1966، 258/11؛ الأندلسي، 2004، 191؛ النويري، 2002، 296/23).

وبذلك تمهدت السبل للاتجاه الحنبلي التي التزمته الخلافة وألزمت الاتجاهات الأخرى جميعها للإقرار بمنهجها، فأنفرد من دون منافسة بعد أن حظرت الخلافة في رمضان سنة 550هـ/1155م على الاتجاهات كافة الجلوس للوعظ (ابن الجوزي، 1990، 161/10)، ولم تأذن لهم إلا بعد سنة وخمسة أشهر من هذا التاريخ إذ سمحت لهم بالوعظ في محرم سنة 552هـ/ 1157م، بقصد استنفار العامة للتصدي لحصار السلطان محمد شاه السلجوقي (ابن الجوزي، 1990، 169/10)، شهدت سنة 556هـ/ 1161م مواجهة بين الحنابلة والاتجاهات الأخرى وبخاصة العلوية كادت تؤدي إلى فتنة (ابن الجوزي، 1990، 198/10) إلا أن قوة الخلافة المتمثلة في شخص الوزير ابن هبيرة كانت كافية لاحتوائها بمنحى يميل إلى فرض اتجاهها ففي 18 ربيع الأول من السنة نفسها، أغلقت المدرسة الكمالية (ابن الجوزي، 1990، 89/10؛ ابن كثير، 1986، 245/12)، ذات الاتجاه الشافعي أثر مشاجرة بين غلمان الوزير وفقهاء المدرسة المذكورة، فوقع عليهم بضرب الفقهاء وتأديبهم ونفيهم وإغلاق المدرسة (ابن الجوزي، 1990، 199/10؛ ابن الأثير، 1966، 295/11)، وفي 14 صفر 559هـ/ 1164م أمر الوزير ابن هبيرة بالتشهير بمجموعة من الحصريين (صناع الحصر) لمخالفتهم لمعلمهم الحنبلي (ابن الجوزي، 1990، 208/10)، ويبدو أن الوزير استطاع تحقيق أهدافه السياسية والفكرية على وفق اتجاه الحنبلي وذلك بدعم الخليفة المقتفي ومساندته الذي أمضى سنواته العشر في جهاد متواصل للتحرر من التسلط السلجوقي وآثاره على المستوى الداخلي.

إلا أن وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله وتوليه ابنه المستنجد بالله سنة 555هـ/1160م كدرت ذلك العمل إذ سمح للتيار الشافعي بالتبلور والنفوذ ضمن مؤسسة الخلافة، وذلك التيار لم يكن على وفاق مع الوزير ابن هبيرة، ومن ذلك التيار (مرجان) خادم الخليفة الذي أظهر رفضه للاتجاه الذي يقوده الوزير ونقصه على الحنابلة، حتى أنه أمر بهدم المكان المخصص للوزير في مكة، معلناً عن رغبته في إقصاء الحنابلة سياسياً وفكرياً، وكان موت الوزير ابن هبيرة فرصة للإيقاع بمن سند الوزير فكرياً منهم ابن الجوزي الذي اتهمه مرجان لدى الخليفة أن لديه كتباً من تأليف الوزير (ابن الجوزي، 1990، 213/10؛ ابن كثير، 1986، 250/12)، ولا ندري ما حقيقة هذه الكتب التي أصبحت مثار تهمة لمن يحتفظ بها (نهلة شهاب ونزار محمد، 2009، 183).

المبحث الرابع

تداعيات الصراع الفكري على حرية الإبداع (الناصر لدين الله والمستنصرية انموذجاً)

وفي خلافة الناصر 575هـ/1179م أعطى الخليفة أسلوباً جديداً لسياسته، وكان في خدمته كثير من الحنابلة، ومن أبرزهم ابن الجوزي الذي تقدمت به السن، وقل نشاطه، ولكنه لم ينسحب من الحياة العامة، وانتفع بالخصوص من مساندة الوزير الحنبلي ابن يونس (ابن الجوزي، 1980، 32؛ ابن رجب، 1952، 393/1)، ففي سنة 588هـ/ 1192م اتهم عبد السلام بن عبد الوهاب البغدادي، حفيد المتصوف الشهير الشيخ عبد القادر الكيلاني بالاشتغال بالعلوم العقلية والفلسفة واحتواء مكتبته على العديد من كتبها (ابن المستوفي، 1980، 587/2؛ الذهبي، 1963، 617/2)، ((فأرسل الوزير عبد الله بن يونس مكتبي داره فكبست داره وأخرج منها كتبا بخطة في الفنون منها الشفاء لابن سينا، والنجاة ورسائل إخوان الصفا وكتب الفلاسفة والمنطق واستدعى ابن يونس الذي كان يشغل منصب أستاذ دار يومئذ والعلماء والفقهاء والقضاة والأعيان وكان ابن الجوزي منهم وقرئ في بعضها مخاطبة رجل يقول ((أيها الكواكب المضيء المنير الفرد أنت تدير الأفلاك وتحيي وتميت وأنت إلهنا وفي حق المريخ من هذا الجنس، وكان عبد السلام حاضرا فقال له ابن يونس: هذا خطك؟ قال نعم، قال لم كتبته؟ قال لأرد على قائله، فلما كان يوم

الجمعة ثاني عشر من صفر جلس قاضي القضاة والعلماء منهم ابن الجوزي على سطح المسجد المجاور لجامع الخليفة وأحرقوا تحت المسجد نارا عظيمة وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم والكتب على سطح المسجد بين أيديهم فقام رجل يقال له ابن الارستانيه فجعل يقرأ كتابا كتابا ويقول العنوا من كتبه ومن يعتقده، فضج العوام باللعن وعبد السلام حاضر...)) (ابن المستوفي، 1980، 2/558-589؛ الذهبي، 1963، 2/617؛ الصفدي، 2000، 18/261؛ ابن رجب، 1952، 1/425-426، 2/426)، وقال ابن القفطي (2005، 175-176) ((أخبرني الحكيم يوسف السبتي الإسرائيلي قال: كنت ببغداد يومئذ تاجرا فحضرت المشعل وسمعت كلام ابن المارستانية وشاهدت في يده كتاب الهيئة لابن الهيثم وهو يشير إلى الدائرة التي مثل بها الفلك وهو يقول: وهذه الداهية والنازلة الصماء والمصيبة العمياء وبعد تمام كلامه حرقها وألقاها في النار، قال فاستدللت على جهله وتعصبه إذ لم يكن في الهيئة كفر وإنما هي طريق إلى الإيمان ومعرفة قدرة الله جل وعز فيما أحكمه ودبره)) (ابن رجب، 1952، 1/426)، وفضلا عن ذلك انتزع الوزير عبد الله بن يونس مدرسة عبد السلام وسلمها إلى ابن الجوزي (ابن القفطي، 2005، 176)، ويضيف ابن القفطي (2005، 176): ((واستمر الركن عبد السلام معاقباً على ذلك إلى أن أفرج عنه يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وخمس مئة)).

وكان عزل الوزير ابن يونس، ووصول ابن القصاب إلى الوزارة سنة 590هـ/1194م نذيرا ببدء نكبة ابن الجوزي (ابن الجوزي، 1980، 32)، لذا نجد عبد السلام المذكور يحرض الوزير ابن القصاب على ابن الجوزي ويتهمه بكونه من أكابر أصحاب ابن يونس المخلوع، بقوله: ((أين أنت من ابن الجوزي؟، فهو من أكبر أصحاب ابن يونس، وأعطاه مدرسة جدي، وأحرقت كتبي بمشورته؟ فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر.. فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام، فجاء إلى دار الشيخ وشتمه وأغلظ عليه وختم على كتبه وداره، وشتت عياله)) (ابن رجب، 1952، 1/426؛ الذهبي، 1985، 21/376-377). ويقدم سبط ابن الجوزي (1990، 8/438-439) وصفاً لهذه الحادثة بقوله ((كان جدي... جالساً في السرداب يكتب وأنا صبي صغير، ما أحسسنا إلا بعبد السلام وإذا به هجم على جدي السرداب، وأسمعه غليظ الكلام، وختم على كتبه وداره، وسب عياله، وجرى عليهم ما لم يجر على أقل الناس، فلما كانوا في أول الليل، حملوا جدي في سفينة وأنزلوه فيها، ونزل معه عبد السلام لا غير، وعلى جدي غلالة بغير سراويل وعلى رأسه تخفيفة، وحدره إلى واسط))، وفي واسط عقد مجلس حضر فيها القضاء والشهود، وادعى عبد السلام على ابن الجوزي أنه تصرف في وقف المدرسة، واقتطع من مالها، فأنكر ابن الجوزي ذلك وكتب محضر بما جرى، وأمر الشيخ بالمقام بواسط ورجع عبد السلام وبقي الشيخ ابن الجوزي سجينا في واسط خمس سنين من سنة 590-595هـ/1193-1198م (ابن الجوزي، 1980، 33؛ ابن رجب، 1952، 1/426؛ ياسين، 1979، 40)، ويذكر ابن الجوزي (1990، 8/440) اختلاف الناس في تفسير محنة جده ويميل هو إلى تعليلها، بالثأر لما فعله الوزير ابن يونس ببيت عبد القادر الكيلاني، ثم يقول (وأهل بغداد يقولون شيئا آخر والله أعلم)، وهناك شيء آخر ألمح إليه ابن رجب (1952، 1/426) بقوله (ولم يكن له ميل (أي الخليفة الناصر) إلى الشيخ أبي الفرج، بل قد قيل: إنه كان يقصد أذاه، وقيل إن الشيخ ربما كان يعرض في مجالسه ندم الناصر فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام)، ويبدو من هذه الرواية أن يكون السبب في نكبة شيخ وعاظ بغداد واحد أعلام الحنابلة في ذلك العصر، قد يكون حقد الخليفة الناصر عليه.

ونلحظ في هذه المدة، تدخل السلطة تدخلاً كبيراً في أسلوب التدريس ومنهجه في المدرسة المستنصرية (ابن الفوطي، 1997، 80؛ مصطفى جواد وآخرون، 1957، 47؛ أمين، 2013، 107)، بشكل يحد من حرية أساتذتها الفكرية ويلزمهم اتباع أقوال المشايخ من السلف واحترامها وعدم تعديها، يقول ابن الفوطي (1997، 268) إن في سنة 646هـ/1248م ((أُحضر مدرسو المستنصرية إلى دار الوزير، وتقدم إليهم أن لا يذكروا شيئاً من تصانيفهم ولا يلزموا الفقهاء شيئاً منها، بل يذكروا كلام المشايخ تأدباً معهم وتبركاً بهم، فأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي مدرس الحنابلة بالسمع والطاعة، ثم مدرس المالكية سراج الدين عبد الله الشير مساحي، وقال: (ليس لأصحابنا تعليقة (أي المحاضرات الفقهية المتعلقة بمذهب معين، وتكون شاملة (المنهج) جميعه، فأنا ألتقط من مسائل الخلاف ما أرتبه) فبان بذلك عذره، وأما شهاب الدين

الزنجاني مدرس الشافعية... وعبد الرحمن ابن اللمغاني مدرس الحنفية، فإنهما قالا ما معناه: (إن المشايخ كانوا رجالاً ونحن رجال) ونحو ذلك من إيهام المساواة، فأنهيت صورة الحال،... فأجابوه بالسمع والطاعة)) (ابن الفوطي، 1997، 268؛ الذهبي، 1985، 164/23؛ الزركلي، 2002، 161/7).

الخاتمة

من خلال استعراض دور الوزراء في مساندة الخلافة العباسية في مواجهة الاتجاهات الفكرية المخالفة في العصر العباسي الأخير، يمكن الخلوص إلى النتائج الآتية:

١. لم يكن الصراع بين الخلافة العباسية والسلطة السلجوقية سياسياً فحسب، بل اتخذ طابعاً فكرياً ومؤسسياً؛ إذ استغل السلاجقة المدارس "النظامية" لفرض الاتجاهين الشافعي والأشعري وتوجيه الرعية بما يخدم مصالحهم وتسويغ سياساتهم .

٢. وجدت الخلافة العباسية في الاتجاه الحنبلي حليفاً قوياً وموثوقاً لمواجهة النفوذ الأجنبي؛ وذلك لامتلاكه قاعدة شعبية واسعة، ولتبنيه مواقف فقهية تدعم شرعية الخلافة وتوجب طاعتها، فضلاً عن بقائه بمنأى عن احتواء القوى السياسية المنافسة .

٣. أدى الوزراء دوراً حاسماً في تنفيذ سياسة الخلافة واستعادة هيبتها، وبرز الوزير "ابن هبيرة" كقوة ضاربة عملت على تمكين الحنابلة، واجتثاث آثار التسلط السلجوقي، وتصفية الخصوم الفكريين والسياسيين من خلال العزل، والسجن، والمصادرة .

٤. أفرز هذا الاستقطاب الحاد حالة من التعصب وتضييق الخناق على الاتجاهات العقلية والفلسفية، وتجلى ذلك في إغلاق بعض المدارس المنافسة، والتشهير بالمخالفين، وإحراق الكتب الفلسفية والعلمية (مثل كتب ابن سينا وإخوان الصفا) في ساحات عامة .

٥. لم يكن الدعم الرسمي لاتجاه معين ثابتاً، بل ارتبط بشخصيات الخلفاء والوزراء؛ فبمجرد تغير موازين القوى أو وفاة داعميهم، تعرض بعض كبار رموز الحنابلة، مثل "ابن الجوزي"، لنكبات شديدة ومحن نتيجة وشايات الخصوم وتغير سياسة الخلافة .

٦. انتهى المطاف بمؤسسة الخلافة ووزرائها إلى فرض وصاية صارمة على المؤسسات التعليمية (كالمدرسة المستنصرية)، وتقييد الحرية الفكرية للأساتذة بإلزامهم بعدم الخروج عن نصوص المشايخ الأوائل، مما أسهم في تجميد الاجتهاد والإبداع الفكري.

قائمة المصادر والمراجع

١. أبن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم. (1966). الكامل في التاريخ. دار صادر.
٢. أمين، أحمد. (2013). ضحى الإسلام. مؤسسة هنداوي.
٣. الأندلسي، صاعد بن أحمد. (2004). طبقات الأمم. دار المدار الإسلامي.
٤. البنداري، الفتح بن علي. (1978). تاريخ دولة آل سلجوق. دار الآفاق الجديدة.
٥. جب، هاملتون. (1979). دراسات في حضارة الإسلام. (ترجمة: إحسان عباس). دار العلم للملايين.
٦. أبن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي. (1980). سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز. (تحقيق: نعيم زرزور). مؤسسة الكتب الثقافية.
٧. ـــــــــــــــ. (1990). المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. الدار الوطنية.
٨. حسين، جاسم محمد. (1976). تاريخ الخلافة العباسية. مطبعة جامعة بغداد.
٩. أبن خلكان، أحمد بن محمد. (1900). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. المطبعة الكبرى الأميرية.
١٠. الذهبي، محمد بن أحمد. (1963). ميزان الاعتدال في نقد الرجال. دار المعرفة.

١١. ـــــــــــــ. (1985). سير أعلام النبلاء. مؤسسة الرسالة.
١٢. الراوندي، محمد بن علي. (1995). راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية. دار الثقافة.
١٣. أبن رجب، عبد الرحمن بن أحمد. (1952). ذيل طبقات الحنابلة. مطبعة السنة المحمدية.
١٤. الزركلي، خير الدين. (2002). الأعلام. دار العلم للملايين.
١٥. سبط ابن جوزي، يوسف بن قزأوغلي . (2001). مرآة الزمان في تاريخ الأعيان. دار الرسالة العالمية.
١٦.
١٧. السبكي، عبد الوهاب بن علي. (1992). طبقات الشافعية الكبرى. دار هجر.
١٨. السمعاني، عبد الكريم بن محمد. (1962). الأنساب. دائرة المعارف العثمانية.
١٩. فوزي، فاروق عمر. (1988). الخلافة العباسية في عهد التسلط السلجوقي. دار المدى.
٢٠. الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد. (1997). الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة. دار الكتب العلمية.
٢١. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد. (2005). القاموس المحيط. مؤسسة الرسالة.
٢٢. قادر، ع.، ونهلة، أحمد. (2009). مؤسسة الخلافة في العصر السلجوقي. دار النهضة العربية.
٢٣. أبن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد. (1971). تاريخ ابن قاضي شهبة. المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية.
٢٤. القزويني، زكريا بن محمد. (1990). آثار البلاد وأخبار العباد. دار صادر.
٢٥. القفطي، علي بن يوسف. (2005). إخبار العلماء بأخبار الحكماء. دار الكتب العلمية.
٢٦. القلقشندي، أحمد بن علي. (1987). صبح الأعشى في صناعة الإنشا. دار الكتب المصرية.
٢٧. أبن كثير، إسماعيل بن عمر. (1986). البداية والنهاية. دار الفكر.
٢٨. كلارك، ب. (د.ت). نظام الملك: دراسة في مؤسسات الدولة السلجوقية. (مترجم).
٢٩. المستوفي، شرف الدين مبارك. (1980). تاريخ إربل. وزارة الثقافة والإعلام العراقية.
٣٠. مصطفى جواد، وآخرون. (1957). دليل خارطة بغداد. المجمع العلمي العراقي.
٣١. ـــــــــــــ. (1969). المدرسة المستنصرية. مطبعة المجمع العلمي العراقي.
٣٢. نهلة، شهاب، ونزار، محمد. (2009). الفكر السياسي في العصر العباسي المتأخر. دار المعرفة.
٣٣. النويري، شهاب الدين أحمد. (2002). نهاية الأرب في فنون الأدب. دار الكتب والوثائق القومية.
٣٤. أبن واصل، جمال الدين محمد. (1953). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. جامعة القاهرة.
٣٥. ياسين، عبد القادر. (1979). محنة ابن الجوزي. مطبعة الأديب.
٣٦. أبو يعلى، محمد بن الحسين. (2000). الأحكام السلطانية. دار الفكر.

List of Sources and References:

1. Ibn al-Athir, 'Izz al-Din Abu al-Hasan 'Ali ibn Abi al-Karam. (1966). *Al-Kamil fi al-Tarikh* [The Complete History]. Dar Sader.
2. Amin, Ahmed. (2013). *Duha al-Islam* [The Morning of Islam]. Hindawi Foundation.
3. Al-Andalusi, Sa'id ibn Ahmad. (2004). *Tabaqat al-Umam* [Categories of Nations]. Dar al-Madar al-Islami.
4. Al-Bundari, al-Fath ibn 'Ali. (1978). *Tarikh Dawlat Al Saljuq* [History of the Seljuk State]. Dar al-Afaq al-Jadida.
5. Gibb, Hamilton. (1979). *Studies on the Civilization of Islam*. (Trans: Ihsan Abbas). Dar al-'Ilm lil-Malayin.

6. Ibn al-Jawzi, Abu al-Faraj 'Abd al-Rahman ibn 'Ali. (1980). *Sirat wa Manaqib 'Umar ibn 'Abd al-'Aziz* [Biography and Virtues of Umar ibn Abd al-Aziz]. (Ed: Na'im Zarzour). Mu'assasat al-Kutub al-Thaqafiyya.
7. .——— (1990). *Al-Muntazam fi Tarikh al-Muluk wa-al-Umam* [The Regular in the History of Kings and Nations]. Al-Dar al-Wataniyya.
8. Husayn, Jasim Muhammad. (1976). *Tarikh al-Khilafa al-'Abbasiyya* [History of the Abbasid Caliphate]. Baghdad University Press.
9. Ibn Khallikan, Ahmad ibn Muhammad. (1900). *Wafayat al-A'yan wa Anba' Abna' al-Zaman* [Obituaries of Eminent Men and Histories of Leading Contemporaries]. Al-Matba'a al-Kubra al-Amiriyya.
10. Al-Dhahabi, Muhammad ibn Ahmad. (1963). *Mizan al-I'tidal fi Naqd al-Rijal* [The Scale of Moderation in Critiquing Men]. Dar al-Ma'rifa.
11. ——— (1985). *Siyar A'lam al-Nubala'* [Biographies of Noble Figures]. Mu'assasat al-Risala.
12. Al-Rawandi, Muhammad ibn 'Ali. (1995). *Rahat al-Sudur wa Ayat al-Surur fi Tarikh al-Dawla al-Saljuqiyya* [Comfort of Hearts and Sign of Joy in the History of the Seljuk State]. Dar al-Thaqafa.
13. Ibn Rajab, 'Abd al-Rahman ibn Ahmad. (1952). *Dhayl Tabaqat al-Hanabila* [Continuation of the Categories of Hanbalis]. Matba'at al-Sunna al-Muhammadiyya.
14. Al-Zirikli, Khayr al-Din. (2002). *Al-A'lam* [Eminent Personalities]. Dar al-'Ilm lil-Malayin.
15. Sibt ibn al-Jawzi, Yusuf ibn Qizughli. (2001). *Mir'at al-Zaman fi Tarikh al-A'yan* [Mirror of Time in the History of Notables]. Dar al-Risala al-'Alamiyya.
16. *(Blank entry in the original list)*
17. Al-Subki, 'Abd al-Wahhab ibn 'Ali. (1992). *Tabaqat al-Shafi'iyya al-Kubra* [The Major Categories of Shafi'is]. Dar Hajar.
18. Al-Sam'ani, 'Abd al-Karim ibn Muhammad. (1962). *Al-Ansab* [The Genealogies]. Da'irat al-Ma'arif al-'Uthmaniyya.
19. Fawzi, Farouq 'Umar. (1988). *Al-Khilafa al-'Abbasiyya fi 'Ahd al-Tasallut al-Saljuqi* [The Abbasid Caliphate during the Era of Seljuk Domination]. Dar al-Mada.
20. Al-Fuwati, 'Abd al-Razzaq ibn Ahmad. (1997). *Al-Hawadith al-Jami'a wa-al-Tajarib al-Nafi'a fi al-Mi'a al-Sabi'a* [Comprehensive Events and Useful Experiences in the Seventh Century]. Dar al-Kutub al-'Ilmiyya.
21. Al-Firuzabadi, Majd al-Din Muhammad. (2005). *Al-Qamus al-Muhit* [The Surrounding Ocean / The Comprehensive Dictionary]. Mu'assasat al-Risala.
22. Qadir, A., & Nahla, Ahmad. (2009). *Mu'assasat al-Khilafa fi al-'Asr al-Saljuqi* [The Institution of the Caliphate in the Seljuk Era]. Dar al-Nahda al-'Arabiyya.

23. Ibn Qadi Shuhba, Abu Bakr ibn Ahmad. (1971). *Tarikh Ibn Qadi Shuhba* [History of Ibn Qadi Shuhba]. Institut Français d'Études Arabes / French Scientific Institute for Arabic Studies.
24. Al-Qazwini, Zakariyya ibn Muhammad. (1990). *Athar al-Bilad wa Akhbar al-'Ibad* [Monuments of Lands and Histories of People]. Dar Sader.
25. Al-Qifti, 'Ali ibn Yusuf. (2005). *Ikhbar al-'Ulama' bi-Akhbar al-Hukama'* [Informing Scholars about the Histories of Philosophers]. Dar al-Kutub al-'Ilmiyya.
26. Al-Qalqashandi, Ahmad ibn 'Ali. (1987). *Subh al-A'sha fi Sina'at al-Insha* [The Dawn for the Blind in the Craft of Composition]. Dar al-Kutub al-Misriyya [Egyptian National Library].
27. Ibn Kathir, Isma'il ibn 'Umar. (1986). *Al-Bidaya wa-al-Nihaya* [The Beginning and the End]. Dar al-Fikr.
28. Clark, P. (n.d.). *Nizam al-Mulk: A Study in the Institutions of the Seljuk State*. (Translated).
29. Al-Mustawfi, Sharaf al-Din Mubarak. (1980). *Tarikh Irbil* [History of Erbil]. Iraqi Ministry of Culture and Information.
30. Jawad, Mustafa, et al. (1957). *Dalil Kharitat Baghdad* [Guide to the Map of Baghdad]. Iraqi Academy of Sciences.
31. 1969) .————). *Al-Madrasa al-Mustansiriyya* [The Mustansiriya Madrasa]. Iraqi Academy of Sciences Press.
32. Nahla, Shihab, & Nizar, Muhammad. (2009). *Al-Fikr al-Siyasi fi al-'Asr al-'Abbasi al-Muta'akhkhir* [Political Thought in the Late Abbasid Era]. Dar al-Ma'rifa.
33. Al-Nuwayri, Shihab al-Din Ahmad. (2002). *Nihayat al-Arab fi Funun al-Adab* [The Ultimate Aim in the Arts of Erudition]. National Library and Archives (Egypt).
34. Ibn Wasil, Jamal al-Din Muhammad. (1953). *Mufarrij al-Kurub fi Akhbar Bani Ayyub* [The Dispeller of Sorrows in the History of the Ayyubids]. Cairo University.
35. Yasin, 'Abd al-Qadir. (1979). *Mihnat Ibn al-Jawzi* [The Ordeal of Ibn al-Jawzi]. Al-Adib Press.
36. Abu Ya'la, Muhammad ibn al-Husayn. (2000). *Al-Ahkam al-Sultaniyya* [The Ordinances of Government]. Dar al-Fikr.